مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

العدد ٢٠١٢/١٠

الأحد ٤ آذار

الأحد الأول من الصوم

أحد الأرثوذكسية

تذكار أبينا البار جراسيموس

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الخامس

الرسالة

(عبرانيين ١١:٢٤– ٢٦، ٣٢ – ٤٠)

يا إخوةُ بالإيمان موسى لمَّا كَبُرَ أبى أن يُدعى ابنًا لابنةِ فرعون* مُختارًا الشَّقاءَ معَ شعبِ اللهِ على التمتُّع الوقتي بالخطيئة* ومُعتَبِرًا عارَ المسيح غنًى أعظمَ من كُنوز مِصر. لأنَّهُ نَظَرَ إلى الثواب* وماذا أقولُ أيضًا. إنَّهُ يَضيقُ بي الوقتُ إن أخبرتُ عن جدعونَ وباراقَ وشمشونَ ويفتاحَ وداودَ وصموئيلَ والأنبياءِ* الذينَ بالإيمان قَهَروا الممالكَ وعملوا البرَّ ونالوا المواعِدَ وسَدُّوا أفواهَ الأسودِ* وأطفأُوا حِدَّةَ النارِ ونَجَوْا من حَدِّ السيفِ وتَقَوَّوْا من ضُعفٍ وصاروا أشدَّاءَ في الحربِ وكَسَروا معسكَراتِ الأجانبِ* وأخذت نساءٌ أمواتَهنَّ بالقيامةِ وعُذِّبَ آخرون بتوتير الأعضاءِ والضربِ ولم يقبلوا بالنجاةِ ليَحصلوا على قيامةٍ أفضل* وآخرون ذاقوا الهُزْءَ والجَلْدَ والقيودَ أيضًا والسِّجن* ورُجِموا ونُشِروا وامتُحنوا

الأيقونة

في الأحد الأول من الصوم الكبير تقيم الكنيسة المقدّسة تذكار تثبيت إكرام الأيقونات المقدسة الذي جرى على يد ملك القسطنطينية ميخائيل وأمّه ثيودورة، في عهد البطريرك القسطنطينيّ مثوديوس القديس المعترف. ويُسمّى هذا الأحد أحد الأرثوذكسية أي أحد مستقيمي الرأي، نظراً إلى النصر الذي حقّقته الكنيسة بإرسائها تكريم الأيقونات، ولما يحمله ذلك من تأكيد على الإيمان القويم بتجسد كلمة الله من أجل خلاصنا.

لقد كان للأيقونة دور منذ بدء المسيحية. فقد كانت وسيلة فنيّة عبّر فيها المؤمنون الأوائل عن إيمانهم واستعملوها للتعليم وللتعريف عن أنفسهم.

بدأ المسيحيون برسم رموز على الجدران كالسمكة والسفينة وغيرهما من الرموز ليعبّروا بها عن انتمائهم. ثم أخذوا يرسمون صوراً للرب يسوع، ويرسمون أيضاً أحداثاً وصوراً لأشخاص كانوا يعتبرونهم من رجال الله القديسين. ولم تكن لتلك الرسومات في البدء طابع عباديّ، أي أنّ الأيقونات لم تكن موضوع تكريم، إنّما استُعملت لغايات تعليميّة خصوصاً مع أولئك الذين اعتنقوا المسيحية ولم يكونوا على معرفة بالكتاب المقدّس، أو كانوا أمّيين ولم يكن باستطاعتهم قراءة الكتاب المقدّس، فكانوا بحاجة لشيء ملموس يرافق تعليمهم.

مع الوقت أخذت الأيقونات تفرض نفسها في حياة المؤمنين، مع أنّ هناك مَن كان يستعملها بحذر، خوفاً من الوقوع في عبادة الأوثان، أي خوفاً من الخلط بين تكريم الأشخاص المرسومين في الأيقونات وبين عبادة المادّة المرسومة بحدّ ذاتها، خاصة أن العهد القديم يحذّر من صناعة التماثيل والصور وعبادتها: «لا يكن لك آلهة أخرى أمامي. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورةً ما ممَّا في السماءِ من فوق وما في الأرضِ من تحتُ وما في الماءِ من تحت الأرض. لا تسجد لهنَّ ولا تعبدهنَّ» (خرو ٢٠: ٤–٥). هذا ما أدّى في القرن السابع والثامن للميلاد إلى ظهور مَن عارضوا استعمال الأيقونات واتهموا مكرّميها بعبادة الأصنام. لكن موقف آباء الكنيسة كان واضحاً وبسيطاً: إنّ هذه

وماتوا بحدِّ السيف. وساحوا في جلودِ غنمٍ ومَعزٍ وهم مُعوَزون مُضايَقون مجهودون* (ولم يكنِ العالمُ مستَحقًا لهم). وكانوا تائهين في البراري والجبال والمغاور وكُهوف الأرض. فهؤلاء كلُّهم مشهودًا لهم بالإيمانِ لم ينالوا الموعِد* لأنَّ اللهَ سبقَ فنظرَ لنا شيئًا أفضلَ أن لا يكمُلوا بدوننا.

الإنجيل

(يو ١: ٤٤–٥١)

في ذلك الزمان أراد يسوعُ الخروجَ إلى الجليل فوجد فيلِبُّسَ فقال لهُ اتبعني* وكان فيلِبُّسُ من بيتَ صيدا من مدينة إندراوسَ وبطرس* فوجد فيلِبُّسُ نَثَنَائيلَ فقال لهُ إنَّ الذي كَتَبَ عنه موسى في الناموس والأنبياءِ قد وجدناهُ وهو يسوعُ ابنُ يوسف الذي من الناصرة* فقال لهُ نَثَنَائيلُ أمِنَ الناصرةِ يمكنُ أن يكونَ شيءٌ صالح* فقال لهُ فيلِبُّسُ تعالَ وانظرْ* فرأى يسوعُ نَثَنَائيلَ مقبلاً إليهِ فقال عنهُ هوذا إسرائيليٌّ حقًّا لا غِشَّ فيهِ* فقال لهُ نَثَنَائيلُ مِنْ أينَ تعرفني. أجاب يسوعُ وقال لهُ قبل أن يدعُوَك فيلِبُّسُ وأنت تحتَ التينةِ رأيتُك* أجابَ نَثَنَائيلُ وقال لهُ يا معلّمُ

الأيقونات ليست أصناماً وليست رسومات لآلهة غير الإله الحقيقي الواحد المسجود له في ثلاثة أقانيم. ولكن بما أنّ كلمة الله المولود قبل كلّ الدهور قد تجسّد واتخذ صورتنا البشريّة، صار بإمكاننا تصويره، مؤكّدين بذلك تجسّده من أجل خلاصنا: «والكلمة صار جسداً وحلَّ بيننا ورأينا مجده مجداً كما لوحيدٍ من الآب مملوءاً نعمةً وحقاً» (يو ١: ١٤)، «الذي كان من البدءِ، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسَته أيدينا من جهة كلمة الحياة» (١ يو ١: ١)، «بهذا تعرِفون روح الله. كلُّ روحٍ يعترف بيسوع المسيح أنّه قد جاءَ في الجسد فهو من الله، وكل روحٍ لا يعترف بيسوع المسيح أنّه قد جاء في الجسد فليس من الله. وهذا روح ضدّ المسيح الذي سمعتم انه يأتي والآن هو في العالم» (١ يو ٤: ٢–٣).

وقد أكّد الآباء القديسون، وخاصة القديس يوحنا الدمشقي، على أنّ إكرام الأيقونات هو إكرام للشخص المرسوم عليها. فالعبادة تليق فقط بالله، لذلك هناك سجود عباديّ يجوز فقط لله العلي، أمّا السجود لوالدة الإله وللقديسين فهو سجود إكرامي. كما أننا حين نقبّل الأيقونة فإنّنا لا نقبّل المادة المرسومة عليها الأيقونة، ولا نقبّل الألوان المستخدمة في الرسم، بل نقبّل الرب يسوع أو والدته أو قدّيسيه. ولا بد من الإشارة إلى أنّ هذا ما يحدث مع كلّ واحد منّا، إذ قد يقبّل أحدنا صورة شخص يحبّه وهو بعيد عنه، ففي هذه الحال لا يكون قد قبّل الصورة أي الورق والألوان، بل الشخص نفسه.

غير أنّ الطابع التعليمي للأيقونات بقي محافظاً على مكانته في الكنيسة. لذلك نجد أحداثاً من الكتاب المقدّس ومن حياة القديسين والأعياد الكنسيّة تغطّي جدران الكنائس، بالإضافة إلى أيقونات الرب يسوع ووالدة الإله والقديسين والقديسات. وقد حاول رسامو الأيقونات نقل الأحداث الإنجيلية مع تفسيرهم لها، وقد أضاف بعضهم أبعاداً جديدة للأحداث التي يرسمونها، لذلك نرى مثلاً في أيقونة السامري الشفوق أنّ الرب يسوع هو ذلك السامري، وفي أيقونة ميلاد السيّد نرى أنّ الربّ يسوع مُضجع في مغارة في حين أن الإنجيلي لوقا يذكر المذود. وفي أيقونة ذبيحة إبرهيم يضع أحد رسامي الأيقونات إسحق في حضن أبيه بينما يهمّ إبرهيم بطعنه وكأنه يطعن ذاته، بينما نقرأ في العهد القديم أنّ إبرهيم ربط إسحق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مدّ يده وأخذ السكين ليذبح ابنه.

وفي هذا الأحد نقيم زيّاحاً للأيقونات، صانعين تذكاراً للزياح الذي أقامته الملكة ثيودورة في الأحد الأول من الصوم، بعد انتصار الكنيسة في حربها ضدّ محاربي الأيقونات ويعلن الكاهن على لسان آباء المجمع المسكوني السابع: «إنّنا كما عيَّن الأنبياء، كما علّم الرسل، كما تسلّمت الكنيسة، كما اعتقد المعلّمون، كما اتفقت آراء المسكونة معاً، كما أشرقت النعمةُ، كما انطرد الكذبُ، كما استُعلنت الحكمةُ، كما جاد المسيحُ بالجوائز، هكذا نعتقد، هكذا نتكلّمُ، هكذا نكرزُ بالمسيح إلهنا الحقيقي ونكرّمُ قدّيسيه بالأقوال والتأليفات والمعاني والذبائح والهياكل والأيقونات.

أنت ابـنُ الـلـه أنتَ مَـلِـكُ إسرائيل* أجابَ يسـوعُ وقال لهُ لأنّي قلتُ لك إنّي رأيتُكَ تحت التينة آمنتَ. إنّك ستُعاين أعظمَ من هذا* وقال لهُ الحقَّ الحقَّ أقولُ لكم إنَّكم مِنَ الآن ترونَ السماءَ مفتوحةً، وملائكةُ الله يصعدون وينزِلون على ابن البشر.

تأمل

«فهؤلاء كلُّهم مشهوداً لهم بالإيمان».

يجب ألاّ نترك الحزن يتسلّط علينا لكي يقودنا إمّا إلى أعمالٍ غريبة أو إلى الإنغلاق على النفس. هل واجهتنا تجربة، إزعاج ما، مصيبة ما؟ الله الذي سمح بالتجربة يعرف متى يجب أن تنتهي، وهو ككلّيّ القدرة، يستطيع أن يخلّصنا من كل شرّ عندما تأتي الساعة المناسبة، خصوصاً عندما نتوب عن خطايانا ونعود إليه.

حقاً، كم هم جديرون بالإعجاب أولئك الذين يحترقون في أتون الأحزان ويحتملون النار بشجاعة. إنّهم يذكّروننا بالفتية الثلاثة القديسين: حنانيا وميصائيل وعزريا، الذين لم يقترب منهم لهيب الأتون الذي رماهم فيه ملك بابل نبوخذنصّر بسبب ثباتهم في عبادة الإله الحقيقي (دا ٣: ١–٣٣). لم يضطرب، ولم يفقد

فأمّا المسيحُ فنسجد له كسيّدٍ وإلهٍ ونعبده، وأمّا القديسون فنكرّمهم لأجل السيّد كخدّامٍ له أخصّاء ونقدّم لهم السجود بحسب النسبة. هذا إيمانُ الرسل، هذا إيمانُ الآباء، هذا إيمانِ المستقيمي الرأي، هذا الإيمان قد وطّد المسكونة».

مديح والدة الإله

المديح الذي لا يجلس فيه هي الصلاة التي ترتبط بها أيام الجمعة من الصوم الأربعيني المقدّس. ترتبط هذه الخدمة بأحداثٍ تاريخية تساعدنا على فهم هذه الخِدمة وأقسامها. بدايةً علينا أن نعرف وضع الكنيسة في القرن السابع وقوّة وجودها في المجتمع إذ كان هناك ازدواجيّة بين الدولة والدين ولم يكن هناك من تفريق بين هذين الأمرين في أيّام الإمبراطوريّة. فقد كان البطريرك هو الشخصيّة الثانية في الإمبراطورية. هذا الوضع أدّى في العام ٦٢٦ وأثناء غياب الإمبراطور عن القسطنطينية للحرب، إلى استلام البطريرك المسكوني القديس سرجيوس الإدارة نيابةً عن الإمبراطور والوصاية على ابنه. في هذه الأثناء ازداد ضغط الجيوش المعادية على أسوار المدينة المالكة، وكانت المرّة الأولى التي تتعرّض فيها المدينة للحصار. ما كان على البطريرك إزاء هذه التطوّرات إلاّ أن طاف في المدينة وعلى أسوارها حاملاً أيقونة العذراء. أثار هذا الأمر الذعر في نفوس المهاجمين فاندحر الأعداء عن حدود المدينة وكان النصر.

بعد النصر، وإكراماً للسيدة العذراء التي حمت المدينة، إلتفّ الشعب حول بطريركهم في كنيسة الحكمة الإلهية (آيا صوفيا) ورتّلوا طوال الليل، «بما أنها سهرت من أجلهم وبقوة رفيعة أكملت الظفر على الأعداء»، القنداق الخاص بمديح والدة الإله وهو في الأصل قنداق عيد البشارة. وقد استهلّ البطريرك القنداق بترنيم قطعة جديدة هي «إنّي أنا مدينتك يا والدة الإله، أكتب لك رايات الغلبة...». يضع النصّ اليوناني الترتيلة على لسان المدينة وكأنّ المدينة ترتّل. بالتالي المدينة ببشرها وحجرها ترفع التسبيح والشكر إلى الكليّة القداسة. ترفع رايات الغلبة إلى الجندية المحامية عنها أي والدة الإله، مقدّمةً لها الشكر لإنقاذها من الشدائد. أمّا النص المعروف في كنيستنا «إنّي أنا عبدك» فلا يتضمّن إختلافاً ولا يمكن إعتباره خروجاً على تقليد الكنيسة وإنّما هو تعبير عن شكر المؤمنين لوالدة الإله التي تحميهم من هجمات الأعداء المنظورين وغير المنظورين. فالصلاة هي شكرٌ وتسبيحٌ لا ينحصر لا بزمان ولا بمكان. في سياق التسبيح لوالدة الإله، وكوننا موجودين خارج المدينة المالكة، يعبّر الشعب عن عظمة محبّته للعذراء. هنا إذاً التسبيح ليس على لسان المدينة بل من المؤمنين. والعبوديّة هنا يجب أن لا تفهم بالمعنى الدهريّ أي التسلّط والسيادة لأن المسيح قد أعتقنا من تلك العبوديّة. لا تعارض الترنيمة هذا الإنعتاق أو هذه الحرية وإنّما تأخذنا إلى العبادة الإكراميّة التي تليق بوالدة الإله والقديسين إذ هم يتشفّعون دوماً من أجلنا. نشير إلى أنّ المجمع المسكوني السابع فنّد هذا النوع من العبادة في إطار دفاعه عن الأيقونات.

تأتي التسمية «الذي لا يُجلس فيه» من الصلاة التي رُفعت في

الرجال الثلاثة شجاعتهم، عندما تقرّر موتهم بهذه الطريقة الرهيبة. لقد كان إيمانهم عميقاً ومحبّتهم عظيمة وتفانيهم للرب كبيراً إلى درجة أنّهم كانوا يواجهون حتى الاستشهاد بفرح. في الأتون لم يكونوا يفعلون شيئاً آخر سوى تمجيد اسم الله، وهو لم يترك ولا شعرة واحدة منهم تحترق، هكذا خرجوا من النار منتصرين، وهم محطّ إعجاب الناس حتى اليوم.

يمكننا قول الأمر نفسه عن جميع القديسين. فنحن نُعجب بهم ونكرّمهم، ليس لأنّهم واجهوا الأخطار والاضطهادات والوشايات والعذابات بلا حزن، بل لأنّهم واجهوا الموت أيضاً وذلك بفرح كبير. لقد أحاطت بهم آلاف الشرور وكانوا مسرورين، كانت تهدّدهم ملايين الأخطار وكانوا هادئين، سيقوا إلى الذبح وكانوا يشعرون بالفرح. إنّ الشرّ الأكبر بالنسبة إلى الناس العاديين، أي خسارة الحياة، هو بالنسبة للقديسين البَرَكة الأسمى، لأنّهم كانوا يعرفون أنّ الموت بالنسبة إلى عبيد الله المؤمنين ليس سوى خلاص من عذابات الحياة الأرضيّة الموقّتة والانتقال إلى أبدية الملكوت السماوي المفرح جداً.

القديس يوحنا الذهبي الفم

كنيسة الحكمة الإلهيّة التي سبق وأشرنا إليها، حيث كان الشعب واقفاً وقد أصبح تذكاراً سنوياً فيما بعد في القسطنطينية يُحتفل به في كلّ عام كذكرى للنصر الذي أهدته السيدة لمدينتها.

أما الخدمة المقامة في كنيستنا اليوم فتقسم إلى قسمين: القانون والقنداق. لا يؤثّر هذا الأمر على الإيمان ولا يغيّر شيئاً، إلاّ أنّه من الحَسَن أن يعرف المؤمن بعض التفاصيل عن الخِدَم الكنسيّة لكي لا يكون ترنيمنا أحياناً عن جهل، حاشا. يبدأ القانون من ترتيل «أفتحُ فمي فيمتلئ روحاً...» ويقسم إلى تسعة أودية كما سائر القوانين التي تُتلى في صلاة السَحَر. هذا القانون هو من نظم القديس يوسف المنشئ باستثناء الترنيمة الأولى من كلّ قسم التي هي من تأليف القديس يوحنا الدمشقي.

أما القنداق فيتمحور حول بشارة السيّدة وتجسّد الكلمة. يتألّف من أربعة وعشرين بيتاً تنتهي بلازمتين «إفرحي يا عروساً لا عروس لها» و«هليلوييا». يمكن تقسيم هذه الأبيات إلى أربعة أقسام. القسم الأوّل يخبرنا عن البشارة، الثاني يخبرنا عن الميلاد، الثالث عن الكلمة المسيح المتجسّد، والرابع يخبرنا عن والدة الإله. معظم الدراسات تنسب هذا القنداق للقديس رومانوس المرنّم (القرن السادس) الذي خدم أثناء فترة شموسيّته في كاتدرائية بيروت.

في الأصل وُضعت هذه الخدمة لتُتلى في سَحَر عيد البشارة وقد كانت تقام مرّةً في السنة وتبدأ بالترنيمة التي تتحدّث عن البشارة «إنّ غير المتجسّد...». ولكن منذ نجاة مدينة القسطنطينية أصبحت هذه الخدمة تقام مرّتين في السنة يوم عيد البشارة وفي السابع من آب). وفي عهد البطريرك القسطنطيني القديس فوتيوس نُقل القنداق من عيد البشارة إلى سَحَر السبت الخامس من الصوم. لكن هذه الخدمة اتّخذت مكانةً خاصةً عند المؤمنين فأصبحت تقام على أربعة مراحل بحسب المواضيع المشار إليها أعلاه في سَحَر السبت من الصوم الأربعيني المقدّس. كتدبير رعائي لمشاركة أكبر عدد من المؤمنين تُقام هذه الخدمة في المدن عشيّة أيام الجمعة (الأربعة الأولى من الصوم)، فتتلى صلاة النوم الصغرى يليها القانون ثم القسم المعيّن من أبيات قنداق المديح وتقام الخدمة كاملةً في الأسبوع الخامس.

دورة تدريبية

أقامت رعية دير دخول السيدة إلى الهيكل لمدة ثلاثة أيام في منتصف شهر شباط في دير سيدة البلمند دورة تدريبية لمرشحي مساعدي القادة الذين يتهيأون ليصيروا قادة في فرق التربية المسيحية في الرعية. شارك في الدورة ١٧ قائداً وقائدة. ويستمر تدريب هؤلاء الأشخاص حتى عيد الفصح المقدس حيث ينالون شارة مساعد قائد في الرعية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb